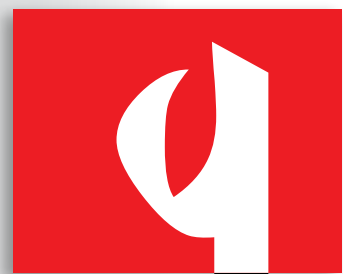




إلهام المدفعي



مدافعون

من زمن التوهج



رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير

عزى لرج

العدد (4325) السنة السادسة عشرة -
الخميس (6) كانون الاول 2018
WWW. almadasupplements.com

7-6

إلهام المدفعي : ظهور
الموسيقى الالكترونية طغى
على كثير من المواهب



علي عبد الأمير

في اوائل تسعينيات القرن الماضي، وبعد ان كشفت الكارثة العراقية عن ساقها، وبدت الحياة الاجتماعية والثقافية شبه نكتة ثقيلة في بلد يان تحت وطأة الأزمات من اقاصه الى اقاصه، كان صاحب المسار الخاص في المشهد الغنائي العراقي، الفنان الهام المدفعي، ينظم ببغداد حفلا موسيقيا جمعه الى عدد من الموسيقيين الشبان، وتحديدًا في العام ١٩٩٢ وضم من يعتبرون المدفعي شيخ طريقة، بجمعه النغم العراقي الاصيل الى اجواء الموسيقى الغربية الخاصة، وكان لصاحب السطور حديث مع الرجل الذي بدا متفهما حتى الملاحظات النقدية القاسية،



المدفعي روحية الموروث الغنائي العراقي بأنغام معاصرة

غنى المدفعي من جديده الغنائي مثلما استعاد معه الجمهور اغنيات حملت روحية الموروث الغنائي العراقي في طريقة معاصرة ابتكرها في السبعينات الهام المدفعي الذي اعطى الجيل من الشباب العراقي مثلا في جرة التعاطي مع الموروث دونما "تقديم" لعناصر اصالة ودونما مبالغة في الإغتراب منه... ومن ذلك المزيج النادرين قدم اغنيات "لجل على الزمان"، "أشقر بشامة"، "فوق النخل"، "هيا بنا"، و"زارع البرزكوش"، ومن اغنيات السبعينات الشهيرة غنى "القطرعة بعيدة" التي سبق ان غناها اول مرة المطرب سعدون جابر.

واخذ الحنين مأخذه عند مئات الاف من العراقيين الذين حضروا حفلاته حين غنى لهم: "خطار عدنا الفرح" التي كانت احدى اغنياته الجديدة حينها، وحملت لاحقا عنوان الاسطوانة التي سجلتها له اكبر انتاج الاسطوانات وهي شركة EMI وقامت بتوزيعها لاحقا على مدى واسع في المنطقة العربية وبعض المدن الاوروبية التي تميز بحضور جاليات عربية كما هو نغم المدفعي الذي احدث تحولاً حقيقياً في مزاج الشباب العراقي مع بداية سبعينيات القرن الماضي، عبر فرقة غنائية لها شكل الروك وبمضون نغمي محلي صرف.

فرح الكاتب الشخصي، جاء ايضا من اكتمال حديث ثنائي مع المدفعي كان ابداً في بغداد، وكيف انها صارت ضيقة على صاحب الحلم الموسيقي البسيط، وان عمّان ستكون البداية الجديدة لتلك المغامرة التي كانت شهدت صعودا وهبوطا بالزمان مع انتقالات حياتية لصاحبها الذي هاجر الى بريطانيا للدراسة، ومنها الى الاسمارت للعمل في السبعينيات، والعودة الى بغداد وهجرتها لاحقا.

بعد سنة ونصف في الولايات المتحدة الاميركية قضاه متجولا في قاعات ومسارح احتشدت بعراقيين وعرب مهاجرين في اكثر من عشرين ولاية اميركية قطع خلالها (٢٤٠) الف ميل.

انجلترا بعد دراسته الهندسة، واسس فرقة في بغداد حملت اسم "١٣" ونصف بدأت بتقديم نمطا من الغناء بدأ "مفاجئا" وغريبا على الاسماع • انه الغناء الذي يتطلع الي البقاء في بيئة عراقية بل و(بغدادية) تحديدا، دون ان يخفي سعيه للوصول الى معاشه حقيقية للعصر وتغيراته وتبدلاته الذوقية، وهكذا اجتمعت في غناء الهام المدفعي صفتان: الموروث الغنائي العراقي والبغدادية الى جانب التوزيع والالات الموسيقية المعاصرة (الغربية) •

بذلك حاول المدفعي ان ينقل سعي الفئة الاوسع من الشباب العراقي وابن المدينة (المتعلم) تحديدا، في ان تكون منبقة من واقعا المحلي الخاص دون ان تنقطع عن العالم ومسايرة تحولاته التقنية والذهنية •

الى جانب الهام المدفعي الذي تجد اغنياته رواجاً كبيراً في عمّان ومن الجمهوريين الاردني والعراقي المقيم على حد سواء، كان هناك في الاسمية موسيقيون بارعون امثال روبرت على (الغيتار) الاسباني حيث عزف بطريقة تؤكد مهارته الالافنة والمتجددة، وانور ابودراغ على آلة (الجوزة) وهي احدى اكثر الالات الموسيقية التراثية العراقية حضوراً، وتضاحب مؤدي المقام العراقي ضمن فرصة خاص تسمى "الجالغي"، الى جانب ذلك نجد العازفين شيرك اميناس (باص غيتار) ماهر حنّان (كونغا) وسارو (درامز) وانس غانم حداد (كمان) وطالب (طلبة) و(خشبة) وهي طلبة صغيرة جدا لها استخدامها الخاص في ايقاعات الغناء الريفي العراقي •

وحين يغنى الهام المدفعي، "خطار" التي تعني "ضيف" او "ضيوف" بالدارجة العراقية، ورغم حزنها (العراقي) المقيم ان ترى كلماتها: ان الفرح ضيف "خطار" ومن الضمب علينا ان نعيشه طويلاً، الا ان براعة حنينة اوجدها المدفعي جعلت من المستمع يعيش لحظتها، واخذ قلقتين في ان: "ان يكون (حزينا) و(مبتهاج)؛ كما غنى "ليني نيسوتو" و"فوق النخل" و"يا زارع البرزكوش" و"لجل على الزمان" وهي من اللوازم الغنائية العراقية الموروثة، الا ان براعة الهام المدفعي جعلها تتكسب مشاوير حياة جديدة حين ادخلها في جو غنائي معاصر "اكان ذلك في طريقة الغناء ام العزف الموسيقي الحر غير المتقيد بقوالب ثابتة، وازافة الى اغنيات المدينة العراقية او ما يعرف اصطلاحاً بـ"البسة" وهي

الاغنية الخفيفة التي كانت تضاحك مقاماً من الدرجة الموسيقية ذاتها، غنى المدفعي اغنيات عراقية خارج هذا التصنيف مثل اغنية "القطرعة بعيدة" التي ابداعها المطرب سعدون جابر واسط السبعينات، كذلك اغنية "مالي شغل بالسوق" التي غناها المطرب حسين نعمة و"اشقر بشامة" للمطرب فاضل عواد.

والى جانب الغناء العراقي غنى المدفعي في امسيته التي استمرت قرابة الساعات الثلاث دونما ملل او رتابة اغنيات "زوروني بالسة مرة" "عليم الله"، "امتي انا اشوفك" وفيها كتكتشف قدرة المدفعي على صنع جو غنائي خاص عماده البهجة والروحية في الاداء الموسيقي والغنائي، فبدت الاغنيات وكأنها خاصة به وليست طريقته في ادائها مجرد اعادة تقديم.

وظافت بالقاعة مجموعة من الشباب النشوان وابتغيات وهي ترقص على ايقاع "التشوبي" الذي انتظمت فيه مجموعة من الاغنيات قبل ان يغني المدفعي بتأثر بالغ قصيدة (بغداد) التي حفلت بصياغة شعرية وموسيقية لا تخلو من شجي كأنه بذلك يقارب المدينة الجميلة والحزنية في آن، وانطلاقاً من جو بغداد عاد المدفعي لغناء نماذج من المزاج البغدادي كما في اغنيات "انا منين وانت منين" و"النوم محرم" وغيرها. وشارك الفنان الهام المدفعي في موسم فني-ثقافي شهده بيروت حمل اسم لبنان ٢٠٠٠ وتضمن امسيات موسيقية وغنائية لغنائين من مختلف القارات، اضافة الى معارض تشكيلية وعروض مسرحية. وازافة الى اشتراكه في هذا الحدث فان المدفعي كان مدعوا للمشاركة في برنامج "يا ليل يا عين" المنوع والذي تقدمه الفضائية اللبنانية LBC، ليكون بذلك اول فنان غير لبناني يستضيفه البرنامج، كما كان مدعوا لاقامة عدة حفلات غنائية تتوزع ما بين بيروت وعدة مدن لبنانية.

وعروض الغنائية التي قدمها في لبنان فضلا عن تلك التي يقدمها في الاردن، تعتمد تدفق وحرارة العرض الحي (Live) بما فيها من ارتجال موسيقي للالات، وارتجال غنائي بحسب الجو العام، وبما ينسجم مع جو عراقي وعربي تشير اليه اغنيات تستمد من الموروث الشعبي امتداداتها النغمية والروحية.

وقضية اتصال عروضة الغنائية بالموروث، تجد حقيقتها في انسجام الالات العراقية والعربية: العود والقانون والجوزة والسنتور والاقايعات المختلفة انواعها، مع الغيتار حيث يلعب المدفعي عليه برشاقة وخبرة كبيرتين كذلك مع الايقاعات الغربية، واصبح الاسلوب الذي يشغل عليه مؤشرا على احياء لبعض الوان الغناء العراقي والعربي لا سيما ان المجموعة التي تضاحبه، تتوفر على اصوات طيبة المستوى.

ويبدو ان حالة التجوال والبحث الدائب عند المدفعي على مستقر مكاني وناسي، تولد عنده دافعا لايجاد مستقر نفسي تحققة الاغنيات والشكل الموسيقي، طالما انه غير ممكن كاستقر مكاني، فهو شديد الالتصاق بملح مدينة غنائيا وموسيقيا، واللون البغدادي يكاد يغلف عموم طريقة المدفعي في الغناء.

وكمعادل موضوعي لفقدانه حميمية المكان الذي تربى فيه ونشأ - يعود الهام الى احدى العوائل البغدادية والعراقية المعروفة بتأثيرها السياسي والاجتماعي والثقافي - يجد ريدود وانفعالات وتحديات العراقيين الموزعين على بقاع العالم اليوم، مايروي الغمضا، فالآف الرسائل التي وجهت اليه في الفترة الاخيرة من خلال البريد الالكتروني، ومن عراقي المهاجر والمنافي، تشير الى ان اسلوبه الغنائي يلاقي اعجابا متواضعا، بل هو رسالة بغدادية مليئة بالوجدان القومي ان تقطعت بهم السبل عن المكان الذي يحيون.

ومن ملامح اسطوانته الثانية، كان اسلوب (الجاز) الذي غلف الاسطوانة الاولى، ومن خلال القوة التي يمنحها هذا الاسلوب موسيقيا، فانه تمكن من توفير مزيج من الموروث الغنائي العربي والعراقي. ضمن فضاء تجريبي لا يبتعد في اجوائه عن دلالات التجريب المسرحي.

عندان حسين

الهام المدفعي.. نموذجا

الجديدة تلغي الحدود المحلية وتجتاح الحدود الخارجية ايضا الى المحيط العربي. في ذلك الوقت يحدث ان يقطع الهام المدفعي دراسة الهندسة في بريطانيا مضطراً فيعطي في بغداد هو ابنته الرئيسية (العزف والغناء) اهتماما اكبر ليبرز بعد وقت قصير نجمة في ليالي الوسط الثقافي والاستقراطي، نسبيا، في العاصمة العراقية.

لم يبتكر الهام المدفعي الحانا او ايقاعات جديدة، ولا حتى كلمات جديدة، فهو اشتغل على الاغاني والبسات القديمة المتوارثة التي اصبحت محببة اكثر من استخدام الآلات الغربية في فرقته. واتاح ذلك، لأول مرة، لرواد نوادي الفنانين التشكيليين والاعلام والمهندسين ان يرقصوا، ازواجا او حتى مجموعات، على الايقاعات الجديدة السريعة للاغاني التقليدية التي اصبحت محببة اكثر، خصوصا بين اوساط الشباب.

الهام المدفعي جعل الاغاني العراقية القديمة تنافس الاغاني الغربية في نوادي بغداد لفترة قصيرة من الزمن. وكانت تلك، في الواقع مأثرة حقيقية. نعم لفترة قصيرة من الزمن. فالحظ العاثر لالهام المدفعي، كما لعشرات من مثقفي جيل الستينات والسبعينات، هو الذي جعله ينجح في اعباء زمن عراقي. فمنذ العام ١٩٦٨ (انقلاب البعث الثاني) فرضت الدولة العراقية سيطرتها الشاملة والمطلقة على المجتمع. وهي دولة كانت، ولم تزل، تخضع لهيمنة حزب واحد. وهذا بدوره كان، ولم يزل، تابعا لتبعية مطلقة لعدد ضئيل من الاشخاص (القيادة التاريخية). والآنكى من كل هذا ان هو لاء الاشخاص (القيادة) هم الاكثر جهلا وتخلفا بين اعضاء الحزب وموظفي الدولة وافراد المجتمع، وهم القادمون على ظهر الدبابة من قاع المجتمع، ومن اكثر اطرافه اهمالا ونسيانا. رئيسهم، الضابط السابق المعزول بتهم وشبهات مختلفة، لا تطربه الا اغاني "بنات الريف، الغجرية، وناثبه، الطالب الفاضل، ليست له

أية ذائقة فنية بينما حسه الامني عال. اما محافظ العاصمة الذي اصبح قيماً على الحياة الثقافية والفنية في بغداد. كما حفيده الآن بالرئيس وناثبه ومساعديهما الرئيسيين، فلم يكن سوى ضابط صغير سابق مطرود ومعلم فاضل. وبدلاً من الاهتمام باعادة بغداد الى سابق دورها الحضاري في العصر العباسي، كما كان هو يتنجح بالقيام به، راح يسير فرقا من الشرطة لصبغ سيقان طالبات الجامعة المرتديات تنورات لا تغطي الركبتين بالطلاء الضابط الصغير السابق المطرود والمعلم الفاضل هذا (محافظ بغداد و«خال الدولة»)، كرس معظم وقته وجهده واجهزته لشن حملة ضد الهام المدفعي ومحمد سعيد الصكار (الخطاط البارع الذي ابتكر مبكراً اولي الخطوط العربية المستخدمة الآن في الكومبيوتر) وغيرهما من فناني العراق ومثقفيه الذين انخرطوا في المشروع الثقافي الطليعي الجديد الذي انطلق في الستينات، بحجة ان ما يقومون به هو مشروع صهيوني، شعوبي للقضاء على الأمة العربية، كانت معركة غير متكافئة

بالطبع؛ مثقفون مقابل حزب فؤض نفسه حقاً لئها في الامر بما يُعمل به، وما لا يُعمل به، ومقابل دولة مدججة باغنى المؤسسات القمعية، ومقابل «قيادة تاريخية» من جهة ومتخلفين تسلخوا ضد المثقفين والجمتع بأسره بالحزب والدولة.

الموت او الانسحاب. كان على الهام المدفعي وامثاله ان يركنا الى واحد من هذين الخيارين. فكان الانسحاب (الى المنفى بالطبع) هو الخيار الاهون.

الهام المدفعي، الذي يبرز لنا مجددا الآن في عمان ودمشق، مقال ونموذج لمئات، بل آلاف، بل عشرات الآلاف من مواهب العراق التي اريد لها إما ان تخنع لشلة الجهلة والمتخلفين او ان تموت، منسبية في احسن الاحوال. فكان ان مات العراق برمته.

هذه المقالة سبق ان نشرت في صحيفة الشرق الاوسط





كنت في الخامسة من عمري عندما سمعت باسم إلهام المدفعي لأول مرة.

كانت المناسبة هي أنه سيتزوج من الفتاة التي كنت قد قررت أن أتزوجها!

كانت "هالة العمري" من أقاربي، تكبرني بعشرين عاما، عروسا مثالية في بغداد آنذاك، بنت حسب ونسب، جامعية، حسناء وأيققة يتقاطر عليها الخطاب بموصفاتهم الجاهرة.

كنت أحبها بكل ما في طفولتي من رغبة في الاستحواذ. كان الأمر لعبة ونكتة عند أهلي، لكني كنت جادا جدية لعب طفل في الخامسة، بل كنت قد جهزت (البيشان) من ألعابي الأثيرة عندي.

كنت جالسا في حجرها عندما صارحتني : أحمد، خالص! رح أتزوج إلهام.

تقول الأسطورة: أن رد فعلي التلقائي كان صفعه فورية على خدها، غالبا مقتبسة من الأفلام المصرية...

وبعدها قلت حكمة أصبحت نكتة في البيت: كل واحد وذوقه!

خطف إلهام حبيبة الطفولة إذن، وها أنا بعد أكثر من أربعين عاما، وبعد ثلاث سنوات من وفاة هالة العمري- إثر مرض عضال- أكتشف أن أثر إلهام المدفعي في جيلي والجيل الذي يكبرني والذي يصغرني، أكبر بكثير مما بدا لي في طفولتي.

إهداء إلى هالة العمري، تعويضا عن رثاء لم أقو على كتابته)

د.احمد خيرى العمري

عن المدفعي: مالي شغل بالغناء...أتحدث عن بغداد

بدأ اسم إلهام المدفعي بالانتشار في بغداد في مطلع السبعينيات. عرف أولا بأنه يقدم (الترات البيغدادي) بطريقة غريبة عبر إدخال الآلات الغربية، خصوصا الغيتار، إلى الأغاني والمقامات العراقية، وكان ذلك آنذاك أمرا مثيرا للجدل،

ويضا مثيرا للاهتمام كما أي جديد، كان قد بدأ بذلك قبل ذلك بفترة طويلة، تحديدا عندما كان لا يزال في المدرسة الثانوية في ١٩٥٨ عندما تعلم العزف على الغيتار من عازف إسباني في بغداد، وجر عزف "فوق النخل" على الغيتار. كان هو الرائد في ذلك على ما يبدو وفيما نعرف، لاحقا تداخل تأثير التراث العراقي مع الرحابنة وسيد درويش وبول مكارثي وبوب ديلان والموسيقى اللاتينية، ليكون هذا المزيج المختلف، نسيجيا متماسكا متناسقا لا يكون كذلك إلا مع المدفعي.

لكن إلهام لم يكن مجرد شاب يؤدي التراث البيغدادي بتأثيرات غريبة وهو يعزف على الغيتار.

كان هناك ما هو أكثر بكثير من ذلك فيه، وهو ما يفسر برأيي لم استطاع إلهام أن يكون أيقونة لما قدمه، بينما جاء كثيرون بعده، ولكن أغلبهم لم يتمكن من الصمود، ليس لتزايد صعوبة المنافسة، وليس لأنه كان الرائد في الأمر فحسب، ولكن لأمر أكثر تعقيدا تجعل مما قدمه ظاهرة اجتماعية وليس مجرد أغان تراثية بأسلوب حديث.

إلهام المدفعي ليس فقط المطرب الذي يعزف التراث البيغدادي على الغيتار، هو أيضا ابن "نصف بغداد"، وهو أمر له معناه بالنسبة لأهل بغداد خصوصا في الفترة التي ظهر فيها إلهام وما بعدها.

هذا الفتى هو ابن "شارع طه" الشارع الذي سكنت فيه أرقى البيوتات البيغادبية في الثلاثينيات والأربعينيات... أي أن هذا الفتى ليس دخيلا على ما يقدمه... وصحيح أنه ليس من أسرة آل المدفعي نفسها التي ينتمي لها جميل المدفعي رئيس الوزراء العراقي المعروف، إلا أن الانطباع العام عن أسرته كان يفض النظر عن كون الأمر مجرد تشابه أسماء؛ خصوصا مع

شهدت تحييد الموروث البيغادي بكل ما فيه. مطربو الغناء الريفي ليسوا متهمين بنشيء ولا حتى الغناء الريفي، وقد كان الغناء الريفي موجودا قبل الظاهرة وله جمهوره المدني على نحو طبيعي.

في فترة انحسار المدينة هذه، ظهر إلهام المدفعي للبيغاديين. ابن عائلة ومنهم وفيهم..درس في بريطانيا، يتحدث مثلهم ويأكل مثلهم ويلبس كما يرتدي أبناؤهم ويقدم (ماضيهم) على نحو حديث... وبالغيتار.

لا يمكن الفصل بين كل تلك المتغيرات الاجتماعية القسرية، وبين ظهور ونجاح إلهام المدفعي في تلك الفترة تحديدا؛ كان ثمة شعور عام لدى البيغاديين بأن بغداد القديمة لم يعد لها وجود، وأن النسخة القادمة من بغداد تضيق عليهم وربما لن يجدوا لهم مكانا فيها بالتاريخ، وكان ثمة حنين إلى الماضي البيغادوي وتمسك به في الوقت نفسه، ليس على طريقة المقام البيغاداي الذي لم يقبل "حراسه" أي تجديد في آلاته وأدواته، بل بطريقة حديثة ومقبولة من الشباب؛ كما لو أن بغداد "القديمة" كانت تقول عبر حنجرة إلهام المدفعي: أنا هنا، لا زال هناك، لم أمت بعد، وقادرة على أن أتجدد... فقط لو أتحتم لي الفرصة.

مع رسالة كهذه كان لا بد لصوت إلهام أن يكون حزينًا مختلفًا كما لو كان يتحدث عن بيكانه.

في هذا السياق لا معنى لنهاية طربية سعيدة يصيح فيها الجمهور : آآآآه. لا داعي لقدرات التدريب وتقنياته، نحن هنا أمام شيء مختلف جدا..أمام مشاعر النوستالجيا – الحنين إلى الماضي- لا تجدي مساحات الأوتكار الصوتية التي تملكها حنجرة المطرب، بل قدرته على التعبير... لذلك فعندما يقول إلهام بين كلمات أغانيه، وبطريقة عفوية جدا: "أمان أمان أمان" فإن ثمة قشعريرة تسري في أجساد البيغاديين على نحو لا يمكن فهمه بالنسبة للأخرين..طريقة قوله للكلمة توظف في البيغاديين نكريات لجة متوقفة أو خالة لأم أو لأب كانت (تدرم) طوال الوقت مع نفسها...عبارة أخرى: توقف فيهم نكريات لبغداد أخرى كانت كلمة (أمان) فيها أكثر شيوعا، بكل ما يعني ذلك..

كان لهذا الحنان الغامض في صوت إلهام أثره المناسب مع كل هذه المعاني: هنا الماضي يربت على كفتيك بحنان ويواسيك، يقول لك لا تحزن، كل شيء سيمضي..

لا أعرف كيف لا يزال الأمر فاعلا بالنسبة لأجيال جديدة ليس في ذاكرتها جدة كهذه، لكنّه لا يزال يؤثر فيهم على نحو غريب، لا تزال أغاني المدفعي تحرك شيئا غامضا فيهم، حتى أولئك الذين كبروا في الغربة بل ولدوا فيها..

ليس الأمر في الجينات بالتأكيد..لكن ربما يتعلق بذاكرة جمعية تجعل من إلهام وما يقدمه صورة ذهبية لبلد الأجداد والجدور..

على أن أنكر هنا أن إلهام المدفعي مثل للكثيرين، وأنا منهم، حلقة وصل مع التراث العراقي تماما بالنسبة للأجيال...الأجيال الشابة في الستينيات والسبعينيات وما تلاها، تذوقت سينترا وإفيس بريسلي والبيتلز وديميس روسوس وفرق البي جييز وأيا..في العربي ممكن أن تكون فيروز وما قدمه الرحابنة عوموا، وأيضا عبد الحلليم، ودرجة أقل ما قدمته أم كلثوم مع الحنان عبد الوهاب... هذه كانت ذائقة الشباب في الستينيات والسبعينيات..تذوق مطربي المقام العراقي مثل يوسف عمر ومحمد الفينجي (مع كل الاحترام) كان أمرا مستحيلًا.. تقريبا لا يزال كذلك، ما فعله إلهام – ضمن أشياء أخرى- هو أنه قدم جسرا وصل بين الخصوصية المحلية والذائقة التي بدأت تتشكل على نحو متأثر بالنزوح الغربي والعربي/ الشامي المصري الحديث، وهذا أمر يذكر.

كما أن للمدفعي خاصية أخرى هي أنه يقوم ببغدة كل ما يؤديه بحيث يبدو النواج بغدادي صرفا، هكذا قدم لنا نماذج مهمة الغناء الريفي البيغاديين على نحو لا يمكن فهمها بالنسبة لأولئك الذين هم أقدم من إلهام. كان الأمر مع كل ما قدمه سواء كان من الرحابنة أو من سيد درويش، شخصيا كنت أعقد أن "بنت الشلبية" و"زوروني كل سنة مرة" و"يا عنولي لا تلمني" من التراث البيغاداي لأن إلهام قدمها على نحو يجعلها كذلك.

ليس سرا أن إلهام المدفعي حورب من قبل القائمين الرسميين على الفن في تلك الفترة، سواء كانوا من النقاد أو من قبل المتفنيين في الإذاعة والتلفزيون، وبمن قبل مطرب معين ناصبه العداء (يبدو ذلك طبيعيا جدا الآن، المطرب نفسه لا يزال يحارب كاظم الساهر حتى اليوم).. لا أتحدث عن مؤامرة هنا، بعضهم

كان ضد التحديث وضد الغيتار... فلنقل إنهم كانوا يرغبون في الحفاظ على تقاليد الغناء العراقي والمقام العراقي، بدأ المدفعي بالنسبة لهم (بشكل على ما يقدرسونه من تقاليد فنية...)

هل كان الأمر كذلك فقط؟ أم أن شعارات المرحلة الاشتراكية المناهضة للغرب والرجعية قد وضعت الغيتار رمزا إمبرياليا والمدفعي نمونجا للطبقات البورجوازية؟ ربما كان الأمر مجرد رغبة في الحفاظ على التقاليد لا أكثر، لكن النتيجة كانت إقصاء كاملا من أهم منفذين للانتشار آنذاك: الإذاعة والتلفزيون. لم يعتمد إلهام كمطرب في الإذاعة (بل لم يتقدم للحصول على الاعتماد أصلا)..لا أغنية لإلهام تبث في "فترة المتوعات" أو "طلبات الأغاني". كل ما حققه الإلهام من انتشار آنذاك كان عبر أشرطة كاسيت مسجلة لحفلات في نواد اجتماعية تداولها الناس وتحدثوا عنها بإعجاب فيما بينهم فتمحق لها الانتشار في عصر لم يكن فيه مواقع للتواصل الاجتماعي كما اليوم.

في النهاية أتسى هذا الإقصاء آكله، وفي سنة أراها رمزية جدا غادر إلهام المدفعي بغداد، كان ذلك عام ١٩٧٩، ورغم أن مغادرته لم يكن لها أي سبب سياسي على الإطلاق، إلا أن هذه السنة شهدت كما هو معلوم تنازل أحمد حسن البكر عن الرئاسة لصدام حسين، تمهيدا للحرب إيران. كان العراق يستعد لدخول النفق المظلم الذي سيؤدي به لاحقا إلى ما أدى من نتائج متسلسل تسقوط قطع الدومينو...أحداث متتالية همشت البيغاديين أكثر فأكثر حتى صاروا يشعرون بالغربة في بلادهم التي كانت بدأت بالاعتراب عن نفسها...

وعندما عاد إلهام إلى بغداد عام ١٩٩٠ وجد جمهورا أكبر بكثير في انتظاره، كان كل ما يحدث في العراق قد جعل الحنين إلى الماضي يصبح منطقيا أكثر، كان الماضي أكثر أمنا واستقرارا ورفاهية... بينما بدأ الواقع غامضا منذا بعواقب وخيمة..

في التسعينيات لم يعد المدفعي ذلك الفنان المتمرد الذي حاول الموسيقون التقليديون تجاهله في السبعينيات، بل أصبح مدرسة تخرج منها شباب كثيرون كانوا صغارا يوم بدأ وكان "إلهام" إلهاما لهم بحق...بل إن سنوات الغربة خارج العراق ونجاحاته في الخارج كانت قد كبرت في عيون العراقيين (وهي عادة عراقية مؤسفة: عليك أن تنجح في الخارج لو تسألني عنك... شكول؟

كنت أشعر أنها تلومني على الغياب... كانت تسمي مشاعري بالذنب، مثل أم تعرف كيف تستثمر عقد أولادها ومشاكلهم، لصالح استمرار سيطرتها عليهم...تغير الوقت...تغير الأمر...تمردت على الأم التي تستثمر مشاعري تجاهها على هذا النحو...صبرت أقول لها: ماذا عنك أنت؟ لقد غبت قبل أن تغيب...تركتنا قبل أن نترك... أحببناك نحن فهل أحببتنا أنت؟ صرت أنا من أسأل بغداد على لسان إلهام: الناس لو تسألني عنك... شرد أجاوبهم؟ شكول؟ ربما هي طريقة لعقلنة مشاعر مؤذية...هذا أوفر بالكليتكس على الأقل...

أما إلهام فهو يريد مخاطبا بغداد مباشرة، بكلمات نزار قباني:

بغداد جحنتك كاسفينة

متعبا...

أخفي جراحاتي

وراء ثيابي...

مدي بساطي...

واملاي آكوابي...

وانسي العتاب...

فقد نسيت عتابي؛

أولا..كي نعرف بك ونأخذك على محمل الجد... والعادة الأوسأ منها هي: لا تأخذك على محمل الجد إلا في حفك التابيني... بعد عمر طويل من الجاهل إن شاء الله)..

حرص المدفعي في هذه المرحلة على أشرفة ما قدم من أغان وتسجيلها في استديو، وتحولت أمسياته في مسرح قاعة الرشيد والمسرح الوطني إلى حدث ثقافي جماهيري، قدم فيها إلهام ليس فقط التراث العراقي مهورا ببصمته وطابعه، ولكن قدم أيضا جديده الخاص به، خاصة القصائد التي كان لها وقع مختلف ومميز، نجاح إلهام في هذه المرحلة أدى لاحقا إلى موجة من الاهتمام بالتراث عند المطربين الشباب، حتى يقال إن عدي صدام حسين قد أمرهم بذلك أمرا..لا يمكن التأكد من ذلك الآن، لكن كل المطربين الشباب في فترة التسعينيات سجلوا وصورا أغاني تراثية ونجح بعضهم بها.. الفرق أنهم كانوا يقدمون تراثا بألآت حديثة، بينما كان إلهام يقدم كل شيء ببصمته وتوقيعه وروحه بحيث يبدو كل ما يقدمه "أصيلا وتراثيا حتى لو كانت أغنية معاصرة تماما، كما فعل مع"أشكر بشامة" التي غناها فاضل عواد وآخر السبعينيات، لكنها مع المدفعي تبدو كما لو كانت تراثا ينبغ فيه المدفعي الروح.

لم يدم بقاء إلهام في بغداد طويلا، حصار التسعينات سبب هجرة الكثيرين من العراقيين خاصة من الطبقة الوسطى، وكان إلهام مثلهم أيضا...خرج بحثا عن وضع أكثر استقرارا..عن جنسية أخرى...عن وطن آخر...كما فعل الملايين منهم عبر التسعينات وما تلاها.

يستطيع إلهام أن يعزف على الغيتار بمهارة يشهد له فيها الخبراء ولست منهم ولا أمك أي خبرة في ذلك..

لكني أشهد له بمهارة عزف أخرى، عزف على أوتار النقس، على أوتارك الشخصية جدا، يدخل بأصابعه وحنجرته إلى داخله، فتجد الكلمات المسكونة بالشجن تكون على لسانك أنت..

في أوائل سنوات غربتي كنت أشعر أن بغداد هي التي تخاطبني على لسان إلهام: هذا مو أنصاف منك ولا منك أصول...غيبتك هلكد تطول...الناس لو تسألني عنك... شردأجاوبهم؟ شكول؟

كنت أشعر أنها تلومني على الغياب... كانت تسمي مشاعري بالذنب، مثل أم تعرف كيف تستثمر عقد أولادها ومشاكلهم، لصالح استمرار سيطرتها عليهم...

مع الوقت...تغير الأمر...تمردت على الأم التي تستثمر مشاعري تجاهها على هذا النحو...صبرت أقول لها: ماذا عنك أنت؟ لقد غبت قبل أن تغيب...تركتنا قبل أن نترك... أحببناك نحن فهل أحببتنا أنت؟ صرت أنا من أسأل بغداد على لسان إلهام: الناس لو تسألني عنك... شرد أجاوبهم؟ شكول؟

ربما هي طريقة لعقلنة مشاعر مؤذية...هذا أوفر بالكليتكس على الأقل...

أما إلهام فهو يريد مخاطبا بغداد مباشرة، بكلمات نزار قباني:

بغداد جحنتك كاسفينة

متعبا...

أخفي جراحاتي

وراء ثيابي...

مدي بساطي...

واملاي آكوابي...

وانسي العتاب...

فقد نسيت عتابي؛



مع ولي العهد البريطاني الامير تشارلز



الاحتراف وضعه في جو المنافسة... وغيتاره بالنسبة اليه كما الأرض للفلاح

إلهام المدفعي: ظهور الموسيقى الالكترونية طغى على كثير من المواهب

يجمع الغناء العراقي الى خصائصه الشرقية العربية تأثره بالغناء الفارسي والتركي والأرمني والكردى، والفنان الهام المدفعي الذي ينطلق من دراسته التراث الغنائي العراقي باهتمام خاص وغير أكاديمي اضافة الى تقديمه موسيقى الجاز، استطاع عبر مسيرته التي بدأت في الستينات، للمرة الرابعة، إعادة تقديم الأغاني القديمة في شكل معاصر.

المدفعي تحدث الى "الحياة" عن هذا النوع من الغناء، اضافة الى "سرقة" فرقة "بوني أم العروفة"، ويتطرق الى دور التراث في تشكيل مواهب كثيرة في العراق، والى دور الموسيقى الالكترونية في محو مواهب أخرى. **×** بعد الجيل الأول من مجددي التراث الغنائي العراقي، والجيل الثاني، يأتي الهام المدفعي لتقديم هذا الغناء في شكل مختلف. ما نظرتك الى التراث في عصرنا الحاضر؟

– اعترض فقط على اعتنابي حلقة ثالثة في التجديد. فكل من الشبخلي والكينجي والقدرجي وخيوكة، وهم من مؤسسي المقام العراقي، يعتبرون مجددين، وهم انفسهم طوروا المقام العراقي، ودخلوا في معركة مع مجتمعاتهم

بتهمة تغريب الغناء. بالنسبة الى مسيرتي الموسيقية، انا طورت الأغاني نفسها للمرة الرابعة خلال مسيرتي، وتراني أعزف المقام بصاحبة الفرقة، وبوجود القانون والجرزة آلة تشبه الكمان، وفي غناء الدسات والأغاني التي تتبع المقام يكون الغيتار هو المصاحب، وعلى خلفيته آلات الفرقة. اليوم نحن في المرحلة الثالثة أو الرابعة من مسيرة بدأتها في الستينات، وفي كل مرحلة أشعر بضرورة إعادة تقديم الأغاني نفسها بمزيد من البهجة والفرح، وايضالها الى الجيل الجديد. هذا هو اقتناعي، اضافة الى عدم المساس بجوهر التراث. لذلك نعمل على تقديمه في صورة صحيحة، بإضافة عناصر جديدة تميزه عن المراحل السابقة. وعندما اتكلم على السنين، ثلاثين أو أربعين أو خمسين، وقياساً على عمر الإنسان، فإن الإتيان بأغنية عمرها ثمانون سنة وإعادة تقديمها الى هذا الجيل أمر صعب. فالجنتع مختلف الآن عن المجتمع الذي انتجها، ولأن مقومات نجاح الأغنية آنذاك مختلفة عن عناصر النجاح في عصرنا، فإننا مستمرين في محاولاتنا. اضع الى ذلك انني أقدم أغاني الخاصة، وهي أكثر مما أقدمه من تراث، ولكن بما ان التراث مفهوم ومدلول، فإنه يضع الأغاني الحديثة في مجال مقارنة، ليعرف الناس أهمية التجديد، ولماذا يقدم الهام المدفعي التراث.

أولوي كان يعتمد تقديم اغان ايطالية واسبانية وانكليزية، اضافة الى الجاز، لكن لذلك جمهوره، وقد يتحسس جمهوري الحالي ذلك، لذلك اقدم اليوم التراث لأنه قريب من ذائقته. **×** التعامل مع التراث مسألة صعبة. هل تتعامل مع الموسيقى من باب الهواية، أم الأكاديمية؟ – من باب الهواية. لكن الاحتراف وضعني في جو المنافسة. واعتبر ان لكل فنان اسلوبه وطريقته، فنحن نحتاج الى كل أنواع الغناء وأساليبه. والساحة تتسع للجميع. **×** ان يكون الغيتار آلة رئيسية شيء غير مألوف في فرقة شرقية، ما هي مكانته عندك؟ وهل لغيتارك مواصفات خاصة؟ – الغيتار ألتي اجيد العزف عليها، وأفضلها على غيرها، والوتر هو الأساس في عملي، إذ يوازى بالنسبة الى ما تمثله الأرض للفلاح. ليس لغيتاري مواصفات خاصة، فهو كلاسيكي، أوتاره من النايلون، لكن تقنيته عالية، وليس فيه أرباع صوت. **×** الشائعات المعروفة ان المقام العراقي يحتاج الى أصوات ذات مساحة عريضة على السلم الموسيقي، ومع الحزن الذي يحمله، كيف تختار أغانيك مع التزامك تقديم الفرغ الى جمهورك؟ – المقام العراقي ذو شجن، وعلى مؤديه ان يكون قارئاً جيداً للطبقات... ونحن فرقة متكاملة، من

حوار/ علي العائد

عازفين وضاربي ايقاع ومغنين. فالإقاعات عندي حقيقية ليس فيها دور للالكترون، والألتا شرقية أصيلة. الجرزة من الألات القديمة تقنياً، لكن انغامها أصيلة. والمقام العراقي ينبع من تقنية هذه الألات. مثل القانون والربابة والإيقاع، والألات الريفية تختلف حسب المناطق. فترات الجنوب يختلف عن تراث بغداد والموصل...

× الاختلاف على أساس اختلاف اللهجة، أم لأمر آخر؟ – باللهجة والأسلوب. فترات الموصل على صلة بترات حلب، والمتبادل بينهما يرجع الى تقارب اللهجة. والجنوب والبصرة والناصرية يعكس تراثها الطبيعية، وهناك الغناء الجبلي الكردي الذي يعكس صدى الصوت، ويتوقع المغني حين يطلق صوته تردد صده. أما في الجنوب فهناك السلاسة المستمدة من السهول والأهوار، والماء الراكد. وحين يعكس العازف تلك في موسيقاه يستجيب الطبيعة. وكذلك الشاعر العراقي والمغني يستمدان مفردات الأغاني والموسيقى من الطبيعة.

× ما أساس اختيار اغنياتك في وقت يطلب الشباب الأغاني الراقصة؟ – الأساس هو الكلمة، ثم اللحن، فالتكوين العام للأغنية. هذه عناصر متكاملة ذات أبعاد هندسية يجب مراعاتها. لكن قوة الكلمة وتناسبها مع

اللحن هما الأساس. **×** لكن اللهجة العراقية صعبة في بعض الدول العربية، هل تغير في الكلمات حتى يصل المعنى الى المستمع؟ – ابدأ، وأن غنيت اغنية لبنانية فسأحافظ على كلماتها حين أقدمها في العراق، كذلك اذا غنيت بالكرديّة، أو باللهجة المصرية، أو باللهجة الأرمنية. **×** لمن لا يعرف التراث الغنائي العراقي، تخطط عليه أغانيه مع أغانيك الخاصة. – ربما، لكنني أحاول المزج بين مجموعة أغانٍ منسجمة في كل عمل أصدره. وفي انتاجي الجديد "خطار" و"الله عليك وشربتك الماي" أغنيات خاصة، اضافة الى مجموعة من أغاني التراث. وهي جميعاً من الحاني، وقسم منها من كلماتي.

وعندما اعمل على التراث لا أمس الكلمات، بل أركز على توافق الإيقاع مع الكلمات في التوزيع الجديد، والانسجام بين صوت المغني الرئيس والأصوات الأخرى. ومن حفلة الى أخرى نقدم الجديد في اتجاه اعطاء الارتجال مكاناً أكبر، وهذا ما فعلته مع اغنية "فوق النخل". **×** صراحة. هل ترى ان الجمهور يتفاعل مع اغانيك طرباً، أم طلباً للرقص فقط؟ – في كل حفلاتي أحس بتفاعل الجمهور، والراقص يندفع في اتجاه المسرح ببهجة. وقد شاهدت في حفلة "أسبوع المدى" ان الجمهور متنوع، من مختلف الأعمار، والأعمال تصيب في كل شخص جانباً فتشرك عواطفه وتدفعه الى التفاعل مع المطرب، حتى ان بعض جمهوري يشاركني الغناء. **×** الرقص ليس تهمة، فنحن في حاجة الى الفرغ. – نعم هذا صحيح. **×** وهل يتيح كل الحزن الذي تحمله الأغنية العراقية بث الروح في جمهورك؟ – الشجن، لا الحزن، هو التعبير الصحيح عن عاطفة الأغنية العراقية. فالشاعر يكتب لحظات من حاله الوجدانية، بفرح أو حزن، وكلاهما يجتمع في الشجن، فيجعلان المستمع سعيداً، ولو كان المغني حزيناً.

والفيلم الرومانسي ممتع، يحرك العواطف،



مع المطرب الجزائري شاب خالد

وان كان حزيناً، هذا هو الشجن، تلك اللمسة الإنسانية الحزينة غير السوداوية التي تلامس الروح فتبعث فيها انفعالات متنوعة، لكنها لا تستثير الدمع. **×** تكرت مرة ان فرقة BoneyM الشهيرة سرقت احد احناك، ما قصة ذلك؟ – في السبعينات سجلت شريطاً أنتشر على مستوى العراق والكويت، وصادف ان زارت تلك الفرقة الكويت وسمعتها. فأعجبته اغنية "يا عدولي لا تلمني" وتحولت اغنية راسبوتين! فحصدت اللحنين فوجدتهما متطابقين. الفرقة نفسها أدت اغنية "سيدي منصور" التونسية المعروفة، فهي لحن "ما بيكر" نفسه. وأرى ان صابر الرباعي غناها بأسلوب أجمل كثيراً مما فعلت الفرقة الأجنبية. **×** منذ منتصف الثمانينات، اتجهت الأغنية في العراق نحو التحديث، لكن المطربين المخضرمين فشلوا في التجديد. ما رؤيتك للتجديد، والأصوات التي ترشحها الى النجومية؟ – السبب الأول في الفشل هو الآلة الالكترونية التي أحدثت فجوة بين الأصيل وما يدعى الحداثة. فتلك الألات دخلت على الموسيقى في محاولة لاختصار الزمن، الأمر الذي أضع فرصة فنانين كبار، مثل ياس خضر الفنان الأصيل ذي الأسلوب المميز في أداء التراث. فأكثر المطربين العراقيين أنبتوا موهبتهم بأداء التراث، والجيل الذي ظهر بعد وفاة ناظم الغزالي شكل ظاهرة

وهو أمر يحدث مع كثيرين من الموسيقيين الأميركيين انفسهم، قررت العودة الى محيطي. لكن ظاهرة تراجع بعض أنواع الموسيقى أمر يستحق الدراسة، وأنا معني بذلك. واليوم نلاحظ ان فرقة "البيتلر" التي ظهرت واشتهرت في الستينات تبعد من شربيلها الأول عشرين مليون نسخة، لماذا عودة القديم ليحتل الصدارة؟ هذا هو السؤال. بالنسبة الى ظهوري في المنطقة العربية، اعتبر أنني لم أتأخر، فقد جئت في وقت مناسب، وانتقلت من العزف المنفرد، الى تشكيل فرقة، وقد يكون هذا مفاجأة لبعض الجمهور، لكنني عملت على اعطاء كل آلة في الفرقة مكانها الصحيح، فهي ١٥ آلة. ولا يقتصر الأمر على اعطاء كل منها جزءاً من اللحن في التوزيع الموسيقي. فنحن ندرک اننا لسنا أفضل العازفين، لكننا كفرقة تتعامل مع آلات تراثية، لا مثيل لنا في العالم العربي، فهناك آلات عمرها مئات السنين كالجوزة والناي وبعض آلات الإيقاع. **×** ما هو جديد اصدارات الهام المدفعي وحفلاته؟ – لدينا تسجيل الألبوم الجديد في باريس، ثم حفلات الصيف في لبنان ولندن وسورية، وسنقدم حفلة في مهرجان البادية في تدمر، ثم في مهرجان المحبة في اللاذقية. وننتظر الفرصة المناسبة للقيام بجولة في حلب ومنطقة الجزيرة.

عراقيون

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير

عزى لير

رئيس التحرير التنفيذي
علي حسين

سكرتير التحرير
رفعة عبد الرزاق



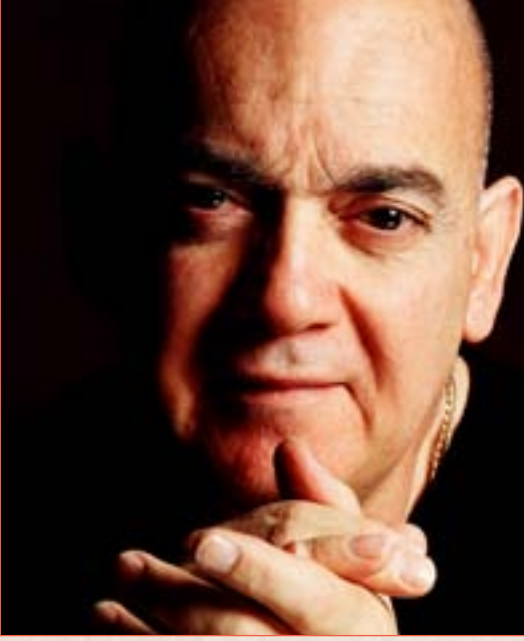
الإخراج الفني: خالد خضير

طبعت بمطابع مؤسسة



للإعلام والثقافة والفنون

WWW. almadasupplements.com



ان اول صورة تتناولها ذاكرة المستمع او المشاهد لهذه الشخصية التي ظلمتها الإقلام الناقدة، هو روح التراث والأصالة، ولأن الشاعر حكمت الحاج تحدث عن الحفل الموسيقي الذي احياه الفنان الهام المدفعي على الفضائية التونسية - فان مقالته الطيبة وان ذهب الى بعض من التاريخ فيها جاءت وصفية وسريعة، وهو ما جعلني اكتب هذه السطور التي كانت في ذاكرتي لولا السبق الجميل الذي حققه الشاعر حكمت الحاج..

الهام المدفعي بين شجون الكيثار واستلهام التراث

عباس الحسيني

يضر بني طول أنا بالخيزرانه... (و أنا يسواذي) على إيقاع الهجج الراقص - وهي من التراث الريفي (طلعت يا محله نوره...) للموسيقار العربي سيد درويش (تحت الرمانه) وغنيته المطربة العربية المبدعة (فيروز)، حيث اعجبت المطربة الإيرانية الكبيرة كوكوش بأداء تحت الرمانه، فأدتها في بغداد.

ان خط الموسيقى الغربية يحمل جذورا عميقة في العراق، ونلك ان العراق، وهو بلد متعدد الأعراق والإثنيات، يحمل الكثير من اناشيد وطقوس الأقوام التي كانت وما زالت تعيش على أرضه، حيث أثرت تراثيل الكنائس وانشيدها في القداسات وبما جعل شريحة كبيرة من المسيحيين - الأثوريين والأرمن والسريان في العراق - يؤدون مقاطع في أغنيات الأعراس والتوليفات الشخصية ذات طابع كنائسي ابرالي رائع، والأروع من ذلك ان النغم المؤدى يحمل طابعا شرقيا اخذا كما في صوت المطرب (جنان ساوى) و (سركون هرمز) و (خبات) و (ديلور عيسى) وغيرهم.

لقد عمل الفنان الهام المدفعي، على مزج التراث بألة الشجن الحديثة - الكيثار - وهو أمر يعد تطورا وابداعا، حيث الشمولية (بسبب من سعة انتشار هذه الألة وبساطتها وشاعريتها) في الاستماع الى الأغاني التي يعاد احياءها وبروح جديدة محدثة، لا تقترب إلا من روح ونسق الإبداع عند الإثنين (هم المستمع) و (وله المؤدى)، كما قام الفنان العراقي الموصلي (سيف شاهين) - بتقديم أغان عراقية على نمط (البلوز الغربي) في أغنية (حتى انت اللي احبه) ومن قبل أغنية (ما ريدك ما ريدك).

تحية خالصة الى الفنان المبدع الهام المدفعي، والى مزيد من الإبداع والاستلهام الشعري للشاعر التونسي الرائع ابو القاسم الشابي، وهو عمل اداء الفنان الهام المدفعي في مطلع السبعينيات، ثم اعاد تسجيله بأسلوب حديث، ولألها المبدع اغنية اخرى من قصائد الشاعر الراحل عبد الوهاب البياتي، وقصائد أخر تضمنتها حفلاته الخاصة.

تحية من القلب الى واحد من اعمدة الهم الموسيقي العراقي والعربي، شاخصت الألة يديه، وهو ملتزم ومبدع لا يشيخ،

حيث عمل على اللحن والعزف والتوزيع والأداء معا، مع الوفاء الرائع لأحياء جذور التراث من المقام والأغنية الريفية والمداولة، تحية الى الهام المدفعي.

والأداء الشعري لألة وصوت الفنان الهام المدفعي مع التريديس الهاروموني لفرقته المؤديه والمغنية معا، تكون النتيجة فنا أصيلا ومبدعا، لا يتضارب وشرائط الأداء اللحني العربي، وان احتج البعض من النقاد والموسيقيين ومنهم الملحن العراقي فاروق هلال، على ان هذا الأداء انما يمثل تغريبا وابتعادا عن الجذر الموسيقي الشرقي، في تقليد الألة الغربية لحرف وروح الألة الشرقية، وهو رأي يحمل الكثير من الصحة عند التذوق العالي لما يطلق عليه الملحن العراقي المعروف طالب القره غولي (روح الأداء في الألة والصوت المؤدى - المطرب -).

ان الهام المدفعي في توزيعاته التي اختلفت ما بين المقام العراقي كما في الأغان التي اشرفنا اليه، أو اغاني المعاصرين له، والمطربين العرب، انما يمثل حالة من حالات تمثيل الأغنية الشرقية لكي يقبث انها حية، ويمكن تؤدي على مختلف الثقافات الموسيقية، ففي الوطن العربي ما من مستمع نهم إلا ويتغنى ب (سالي شغل بالسوك مريت اشوفك) و (فوك النخل) و (خطر عنده الفرحة نعلك صواني شعوع).

والشيء الأهم الذي فات الشاعر حكمت الحاج ان الهام المدفعي وان كان من الرواد في مجال تأدية الأغنية غربيا، الا انه لا يعتبر عازف الكيثار الأول في العراق وهناك عدة أسماء سبقته في هذا المجال ومنهم الفنان المعروف (فؤاد مسعود) والفنان (رهراخت) الذي وزع للمطربة العراقية المعروفة سينا هاكوبيان أغنيات مثل (شوكي) و (غلسواطي عيونني) و غيرها، ومن الجيل الثمانييني الجديد الفنان (هيثم كسار) والفنان (رعد بركات) والعازف العراقي المعجزة (توني) الذي يرأس معهدا في الأردن لتدريس ألة الكيثار، وهناك العازف والمؤدى (ديلور عيسى) باغنيته التي اشتهرت في حينها (خاله شيسوي وياج؟) وتعد من التراث القديم، وهناك من الأسماء التي جاءت بعد الهام بفترة وجيزة، ومنها البائد الغربي (الأجراس) و (شيراك)، وغيرهم، غير ان المميز في عمل الهام المدفعي هو الثقافة العالية في التذوق والأداء والإبتعاد عن الخطوط التجارية والأنماط المستهلكة، وعمله الدؤوب في احياء معالم التراث الغنائي، وهناك اللمسة الشعرية في صوته الحنين الذي يشعرك برومانسية حقيقية كما في يا عدولي لا تلمني، فالهوى غدار) و (عسك هله ويه يا شط عسك - محض من شوف الماي) من المقام العراقي والتي اداها مطلع السبعينيات و اغنية

العافوج يا روجي نوجي) من المقام العراقي الأصلي، حيث أدى الفنان الهام المدفعي أغنية (يحمم يحمام) للمطرب رضا الخياط على ذات الإيقاع، علما بان إيقاع الجورجينا الثقيل، إذا ما سُرّع الزمن فيه (التامبو) فإنه سيقرب من إيقاع (الهيوه) الخليجي - الأفريقي الجذر، و حين سمع موسيقار الأجيال الملحن العربي محمد عبد الوهاب إيقاع الجورجينا العراقي، فقد قال قولته الشهيرة: "ان مجمل الموسيقى العربية تدور في فلك واحد، بإستثناء الموسيقى العراقية، فانها تدور في فلك خاص بها".

لقد كانت اسهامات العام المدفعي في مجال توزيع الجمل اللحنية ابداعا آخر، يضاف الى ابداعاته في العمل في مجال التراث الموسيقي العراقي الأصلي، حيث أصبحت ألة (الباص كيثار)، بديلة لألة (الكونترياص) في النخت الشرقي، ولكن بأسلوب (الجمل المكررة - الدبلات) ومن الذين أبدعوا في ذلك الفنان العراقي عازف الباص كيثار الراءد (أرمين)، وهو نهج جعل الأغنية تتماهى مع النغم المهيأ والجديد من مزوجات الحروف الموسيقية داخل ذات الإستقرار اللحني، وهو جمال متمسوق لم تألفه الأذن الشرقية من قبل، لكنه وبمصاحبة الخلفية الموسيقية لألة الكيبورد (الأورغ) للفنان (سعد هرمز)،



والحق ان الفنان الهام المدفعي رمز ارتبط اسمه بألة الكيثار الغربية، عزفا وأداء صوتيا، غير ان ملامح الأداء التي سار الفنان الهام المدفعي عليها وطورها خلال سني مسيرته الفنية، انما تمثل عملا خلاقا ورائعا تجسد في السعي الدؤوب الذي قام به الفنان في نقل وتوزيع معالم ومفردات موسيقى النخت الشرقي الى آلات (الباند الغربي)، ولأنني ممن امتهن شخصيا العزف على ألة الكيثار، فإن بعض الإيقاعات التي تؤدي في النمط الغربي كانت من ابداعات الفنان ذاته، ويتناولها الموسيقيون بإسم الهام المدفعي، ومنها الإيقاع الذي يؤدي الفنان عليه الاغنية المقام العراقي التراثية (يا زارع البرنكوش - إزرع لنا حنّة) حيث يطلق على إيقاعها (إلهامي)، وهو ما أغضب الفنان والملحن العراقي عباس جميل، حين أدى معنا في جمعية الفنانين في المنصور أغنية (يا زارع البرنكوش)، حيث قال ما الذي تعنونه ب (إيقاع الإلهامي) وحين استمع الملحن الكبير اليه، وجد فيه بعض الإختلاف في الدوران الذي تؤديه الطبول الغربية مع جزئي الصنوج المصاحبة، فأثنى عليه.

ولأمانة التاريخية فقد أدى الهام المدفعي هذه الأغنية وأغان تراثية أخرى مثل (ون يا كلب) وأغنية (النوم محرم على الأجنان - لما حبيبي جافاني) وأغنية (واعله جبين الترف) و (مارابض) و (جل جل عليه الرمان) و (أته إمين وإنته إمين) - حادك حادك زماني) وكلها من ألوان المقام العراقي الرائع، وقد اضاف اليها جملة من الفنانين أغان أخرى مثل اضافة الفريق البغدادي (ديفلز) لأغنية (تانيني صحت عمي يجسال) من التراث الريفي المتأخر، وهي من كلمات والحان وغناء الفنان عبد الجبار الدراجي وأغنية (يا ناس ولفي شماله) للمطرب الكبير (ناصر حكيم) وأغنية (عليلالي ليلالي ليلالي) للمطرب الريفي المشهور (داخل حسن).

اما في تحليل إيقاع الجورجينا العراقي الخالص، فهو إيقاع تنفرد بتأديته الموسيقى العراقية لوحدها، وكما أدت ذلك المطربة العراقية الراءدة (عفيفة اسكندر) اغنية - (شديلك يليلي إحركت كلب) و (يم عيون حراكة) لزهور حسين وأغنية (للناصرية) و (الليلة اسافر للهند واشوف حبيبي) (نوجي على

عراقيون

